الصور الجدارية الصليبية في قلعتي الحصن والمرقب

ياروسلاف فولدا

ترجمة وتلخيص : محمد ماجد الموصلي

تقديم :

قمت في ربيع عام ١٩٧٨ بزيارة إلى كل من قلعة الحصن ومتحف طرطوس، وكانت زيارتي هذه تندرج ضمن مشروع استطلاع ودراسة للأبنية التذكارية الصليبية في سورية وفلسطين . وقد علمت أثناء زيارتي لمتحف طرطوس من السيد محمد رئيف هيكل عن اكتشاف حديث لصور جدارية في قلعة المرقب.

لقد شجعني إكتشاف الصور الجدارية في المرقب ووجود صور جدارية محفوظة في قلعة الحصن على أخذ المبادرة إلى دراسة وتحري تلك الصور والتعاون في إنجاز تلك الدراسة مع متخصص في ترميم وحفظ الصور الجدارية، وهكذا انضمت إلي في تنفيذ الاستطلاع السيدة باميلا فرينش من المعهد البريطاني للآثار في أنقرة.

لقد سهلت لنا المديرية العامة الإجراءات المتعلقة بتنفيذ الاستطلاع المطلوب، ونشكر بهذا الصدد السادة الدكتور عفيف بهنسي المدير العام للآثار والمتاحف والدكتور عدنان البني مدير التنقيب ، والسيد قاسم طوير مدير التنقيبات الإسلامية ، والسيد محمد رئيف هيكل رئيس دائرة آثار طرطوس ، والسيد محمد ماجد الموصلي رئيس دائرة آثار حمص ، والسيدين مصطفى كمال عدرة وأحمد حارسين في قلعة المرقب ، والسيد سليمان مسلماني حارس في قلعة الحصن.

للسيد م. كوبل جزيل شكري وخاصة أنه كان قد زودني بمعلومات قيمة عن أعمال الترميم والتنقيب التي جرت في قلعة الحصن خلال فترة الإنتداب الفرنسي على سورية، كما وأوجه شكري أيضاً إلى السيدة باميلا فرينش لكل ماقدمته من تعاون ومشاركة في العمل ، وإلى السيدة غازيير وإلى عائلة بول ديشامب.

أهداف التقرير.

أولا : دراسة ونشر للمعلومات المتوفرة حول الصور الجدارية المكتشفة في قلعة الحصن والتي كان قد جمعها ودونها الأثريون الفرنسيون ومديرية الآثار السورية وذلك خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٥٥ .

ثانياً: دراسة للأجزاء المتواضعة والمتبقية من الصور الجدارية المكتشفة في قلعة الحصن وللصور الجدارية المكتشفة في قلعة المرقب في عام ١٩٧٨ .

دراسة الصور الجدارية في قلعة الحصن:

الكنيسة الرئيسية

قام بول ديشامب بدراسة الكنيسة الرئيسية

لقلعة الحصن، وقد أفادنا المذكور أن إكتمال تاريخ تشييد هذه الكنيسة يعود إلى مابعد عام ١١٧٠، أي إلى الفترة التي تلت حدوث الزلزال المدمّر في ذلك العام. كما وأن أقساماً أخرى من المبنى الحالي كانت قد أضيفت إليه بعد عامي ١٢٠١ / ١٢٠٢، أي بعد حدوث الزلزال المدمر الثاني. حرر المماليك المسلمون قلعة الحصن في عام ١٢٧١ وعلى أثر ذلك قاموا بتحويل قاعة الكنيسه إلى مسجد وذلك ببناء منبر حجري ومحرابين.

يعتقد الاستاذ ديشامب أن الصور الجدارية للكنيسة كانت قد نفذت على جدران المبنى بعد عام ١١٧٠، لكن الاستاذ المذكور لم يضمن تقريره حول أعمال التنقيب والترميم التي جرت مابين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠، والتي ترأسها بنفسه، وجود بقايا من الصور الجدارية في الكنيسة المذكورة.

يعزى إكتشاف بقايا صور جدارية في الكنيسة الرئيسية إلى تساقط بقايا طبقة طينة بيضاء كانت تكسي جدران الكنيسة. إن ماعثر عليه من أجزاء صور جدارية في مكانها الأصلي، هي تلك الأجزاء من الطينة الكلسية التي وجدت تحت إفريز الجدار الشمالي للكينسة والتي وجد منها أيضاً مغطية لبعض أقسام من نصف القبة وفي بعض مواضع من الجدار الغربي، وعلى العموم فإن معظم تلك الأجزاء من الطينة الكلسية المذكورة تخلو من أي تلوين أو من أية أشكال تزيينية.

أما الأجزاء المتبقية من الطينة والتي مازالت تحتفظ بالوانها فهي متواضعة جداً، ويمكن التعرف من ملاحظتها والتدقيق فيها على وجود اللونين الأزرق الداكن والأحمر.

الصور الجدارية المكتشفة خارج الكنيسة الرئيسية :

اكتشف في قلعة الحصن جزء من صورة جدارية في عام ١٩٥٤، وكان ذلك الجزء مغطى بجدار أضيف إلى المبنى بعد التحرير الاسلامي للقلعة.

لقد اكتشفت تلك الصورة الجدارية في مكانها الأصلي، وهي تمثل مشهد تقدمة السيد المسيح عليه السلام إلى الهيكل (Presentation in the tempel) يظهر في تلك اللوحة خمسة أشخاص تعلو رؤوس أربعة منهم هالة صفراء، كما ويظهر في تلك اللوحة أيضاً مذبحاً وسرداقاً. هؤلاء الأشخاص هم السيدة مريم العذراء وتبدو حاملة طفلها السيد المسيح عليه السلام بين ذراعيها ويظهر في اللوحة أيضاً كل من القديس سمعان والقديسه حنا وطفلة تقف أمام المذبح بين السيدة العذراء والقديس سمعان.

قام أخصائيو المعمل الفني في المديريه العامة للآثار والمتاحف بفك ونقل جزء اللوحه المذكوره إلى دمشق حيث تمت معالجته فنياً، ومن ثم نقلت اللوحه إلى متحف طرطوس حيث عرضت هناك.

الملاحظات الفنية حول الصور الجدارية المكتشفة خارج الكنيسة : تتصف الصور الجدارية الصليبية والبيزنطيه بصفة مشتركة هي تأسيس الأرضيه باللون الأزرق وتحديد الإطار الخارجي باللون الأحمر. من ملاحظاتنا أيضاً كون عنصر تاريخ تلك الصور الجداريه مشكلة يجب التطرق لحلها، ونستطيع الإفتراض في هذا الصدد كون تاريخ تنفيذ تلك الصور الجداريه، يجب أن يقع حتماً بين عامي ١١٧٠ و ١٢٧١.

إن النموذج التصويري للصور الجدارية المكتشفة خارج كنيسة قلعة الحصن يمثل المرحلة الخامسة من المراحل التصويرية لمشاهد الاحتفالات المعبدية (الكنيسة)، وهو النموذج المعروف بوقفة القديس سمعان الطاعن في السن وهو يتلقى الطفل السيد المسيح عليه السلام من السيدة مريم العذراء. وهذا المشهد يتطابق مع ماورد في مضمون إنجيل لوقا (٢ / ٢٨).

لقد تأكد لنا ان الفنان (أو الفنانين) الذي نفذ الصور الجدارية في كنيسة القلعة لم يكن من الفنانين البيزنطيين فتلك الصور تخلو من العناصر المميزة للمدرسة البيزنطية في فن الصور الجدارية. وبل إننا نعتقد أن ذلك الفنان صانع صور جدران قلعة الحصن كان قد قدم إلى القلعة من أحد المراكز الصليبية الأخرى، لربما كان قد قدم من القدس أو من بيت لحم أو من أبي غوش، فتلك المراكز كانت معروفة بأنها المراكز المشهورة بتقاليد الفنون التصويرية على الجدران قبل عصر صلاح الدين الأيوبي.

كنيسة المعمودية:

اكتشف المهندس المعماري الفرنسي بيير كوبل ومساعده م. ب كويتارد في عام ١٩٣٥ كنيسة ثانية في قلعة الحصن. لقد وجدت بقايا تلك الكنيسة على بعد حوالي ٤٠ متراً خارج المدخل الرئيسي للقلعة.

كان الجدار الغربي وجزء من الجدارين الشمالي والجنوبي كل ماتبقى من جدران الكنيسة كاملاً زمن إكتشافها، ولقد أدى العثور على جرن المعمودية بالقرب من الجدار الجنوبي للكنيسة إلى تسميتها بكنيسة المعمودية. أما أهم ما اكتشف في الكنيسة فقد كانت الصور الجدارية المنفذة على الجدران الثلاثة الغربي والشمالي والجنوبي.

نقلت اجزاء الصور الجدارية مباشرة بعد إكتشافها إلى إحدى قاعات القلعة وبقيت محفوظة فيها حتى عام ١٩٧٩. نقلت بعدها إلى المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق للمعالجة الفنية، وبعد أن تم ماهو مطلوب أعيدت على شكل لوحات ذات أطر إلى القلعة وعرضت فيها. الحالة التي وجدت فيها تلك الصور الجدارية لدى إكتشافها كانت سيئة للغاية، وخاصة ان أجزاء كبيرة من جدران الكنيسة كانت شبه مدمره. وكانت الصور قد تعرضت إلى الرطوبة الشديدة مما أثر على تماسكها ودرجة مقاومتها لعوامل الحرارة والصدأ.

من المميزات المدرسية لتلك الصور هو أنها نفذت ضمن إطار، لونه أحمر.

أهم تلك الصور الجدارية هي تلك التي وجدت على الجدار الغربي للكنيسة. لقد حلل م. كوبل طراز تلك الصور بقوله أنها تتألف من ثلاثة سويات الأولى وهي العلوية والثانية وهي الوسطى والثالثة وهي الدنيا. وقارن السوية العليا مع ماعثر عليه من الصور الجدارية للكنيسة الرئيسية المنوه عنها أنفاً، واعتبر أن السوية العليا للصور الجدارية للكنيسة المعمودية هي نفس سوية مشهد تقدمة السيد المسيح عليه السلام إلى الهيكل والمنفذة في الصور الجدارية للكنيسة الرئيسية.

لوحة صور الجدار الجنوبي:

أبعدها ١,٥٥ × ١,٢٠ م، تتألف من مشهدين، يبدو في المشهد الأول رجل واقف أمام

جدار على رأسه قبعة. ويبدو في المشهد الثاني القسم السفلي من صورة امرأة. يفصل المشهدين عن بعضهما إطار فاصل منفذ باللون الأحمر. المميزات الفنية لتلك الصور تتحدد في كونها بسيطة ومنفذة بطريقة الأرضية ذات اللون الواحد والخطوط القوية الخارجية المحددة للشكل المطلوب تصويره.

لوحة صور الجدار الغربي:

أبعادها ٧٦ × ٥٧ سم، مشهد لرجل جالس ينظر إلى الجهة اليسرى، ويبدو مرتدياً لمعطف الخطوط الخارجية المحددة لشكل الرجل منفذة باللون الأسود والطراز المميز لهذا المشهد هو نفسه المميز للوحة الآنفة الذكر.

اللوحة الرئيسية من صور الجدار الغربي:

أبعادها ٨٠ × ٥٦ سم، مشهد رجل حالق الذقن ينظر إلى الجهة اليسرى. حالة اللوحة سيئة جداً، وهذا مايجعل من التعرف على ألوانها عملية شاقة. يظهر في المشهد أيضاً شكل امرأة تقف خلف الرجل وهي ترتدي ثوباً ذا لون فاتح.

الجزء الشمالي من صور الجدار الغربي:

مشهد للسيدة العذراء وهي تحتضن الطفل المسيح عليه السلام ويظهر في الزاوية العلويه اليمنى من المشهد أحد الملائكة، كما ويظهر في نفس المشهد القديس الشيخ سمعان.

حالة الصورة سيئة، وعليه فإن التعرف على الألوان المستخدمة في تنفيذ تلك الصور هي الأخرى عملية شاقة، لكنه مازال يمكن رؤية الهالة الصفراء بشكل جيد.

لوحة صور الجدار الشمالي:

مشهد يتألف من جزئين. أبعاد الجزء الأول ١,٤٥ × ٠,٩٤ م وأبعاد الجزء الثاني ٩٢ × ٩٦ سم، يظهر في المهشد القسم السفلي من صورة حصان تحيط بقدميه أسماك.

ملاحظات عامة حول الصور الجدارية للكنيسة المعمودية:

لقد نوه بول ديشامب إلى بعض النقاط الهامة حول تاريخ تلك الصور وطرازها ويمكن تلخيص ملاحظاته في النقاط التالية:

١ - تمثل الصور الجدارية القديس الشيخ سمعان ومشاهد من معجزاته.

٢ - تؤرخ تلك الصور الجدارية في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد.

٣ - الطراز الفني المميز لتلك الصور الجدارية هو ليس ببيزنطي، بل هو مزيج من التقاليد السورية والفرنسية.

إن مشهد السيدة العذراء مع طفلها والملاك وصورة القديس سمعان على الجدار الغربي للكنيسة، يؤكد لنا تأثر الفنان بالتقاليد البيزنطية، فالقديس الشيخ سمعان يرتدي ثياباً من الطراز البيزنطي، لكننا إذا قارنا فن الصور الجدارية هذا مع الصور البيزنطية النموذجية كما هو الحال في مشهد القديس سمعان في نيريزي (Nerezi) والذي يعود تاريخه إلى عام ١١٦٤، نتحقق من أن تلك الصور الجدارية هي من صنع فنان لاتربطه بالتقاليدالبيزنطية أية رابطة مباشرة.

وقبل أن ننتهي من معالجة موضوع الصور

الجدارية للكنيسة المعمودية لابد من التطرق إلى مشكلة تأريخها. وحيث أننا نفتقد إلى العينات الأثرية التي يمكن بواسطتها تحديد تأريخ تقريبي لتلك الصور الجدارية، لكننا نستطيع التأكيد بأن تلك الصور الجدارية هي من العهد الصليبي أي أن تأريخها يجب أن يقع بين عامي ١١٤٢ و ١٢٧١ لقد نفذت تلك الصور على جدران كنيسة المعمودية لخدمة المصلّين من المزارعين والفلاحين الذين كانوا يقطنون المنطقة الواقعة خارج القلعة مباشرة. الطراز المميز لصور الكنيسة المعمودية هو طراز الصور الجدارية للقرن الثاني عشر. وأخيراً نقترح تأريخ تلك الصور الجدارية عند نهاية القرن الثاني عشر أو عند بداية القرن الثالث عشر.

قلعة المرقب:

لوحظ في ربيع عام ١٩٧٨ وجود بقايا من صور جداريه في الكنيسة الرئيسية لقلعة المرقب وقد اكتشفت تلك الصور الجدارية فوق حنية سقف الغرفة الشمالية / الشرقية المجاوره للقاعة الرئيسية في الكنيسة. تمت إزالة الطبقة المغطية لتلك الصور من قبل إخصائيين في المعمل الفني التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف.

الكنيسة الرئيسية:

تبلغ الأبعاد الداخلية للكنيسة ٢٣ × ١٠ م، وتبلغ الأبعاد الداخلية للغرفة المقدسة التي عثر فيها على الصور ٣٫٤٣ × ٧٫٦٣م. قام ببناء الكنيسة الرئيسية في المرقب الصليبيون، وهم الذين فرضوا سيطرتهم على القلعة اعتباراً من الأول من شباط عام ١١٨٦. يذكر الأستاذ ديشامب أن الكنيسة الرئيسية لقلعة المرقب هي من أبكر الأبنية الصليبية زمنيا، كما وتفيدنا المعلومات التاريخية بأن كنيسة المرقب احتلت مركزاً مرموقاً في العهد الصليبي فقد نقل اليها اسقف افاميا مركزه وأصبحت تلك الكنيسة كاتدرائية في عام ١١٨٨.

حولت كنيسة المرقب الى مسجد بعد تحرير القلعة من قبل المماليك المسلمين في ٢٣ أيار من عام ١٢٨٦.

الصور الجدراية لكنيسة المرقب:

كان اكتشاف الصور الجدارية في كنيسة المرقب في أيار من عام ١٩٧٨ أول اكتشاف لصور جدارية مسيحية في القلعة. لقد اكتشفت تلك الصور الجدارية فقط في الغرفة الشمالية / الشرقية، كما نوهنا الى ذلك آنفاً.

نفذت تلك الصور الجدارية فوق أرضية حمراء اللون، والطراز المميز لتلك الصور هو ذلك الطراز النموذجي للصور المسيحية الصليبية والذي يتمثل بتصميمات هندسية مرافقة للأشخاص والمواضيع المرسومة، هذا الطراز النموذجي هو الطراز المعروف للصور الجدارية في كنيسة أبو غوش في فلسطين.

إن التزيينات الهندسية المنفذة في الصور الجدارية البيزنطية والغربية هي المعروفة باسم الحلية المعمارية (dado) والتي تنفذ عادة في أسفل الجدار. تشذ الصور الجدارية في المرقب عن الطراز النموذجي بالنسبة للتزيينات الهندسية (الصلبان المتجاورة) بأنها منفذة اعتباراً من الأسفل وحتى ارتفاع ثلاثة أمتار، وهي تخلو من أية عناصر للأشكال. يبدو أن الاطراء في ادخال التزيينات الهندسية الى السطوح المنفذة عليها

الصور الجدارية هو من التقاليد الخاصة بمناطق سورية وفلسطين .

يمكننا القول بالتأكيد أن الصليب المتساوي الأضلاع هو من البواعث التزيينية البيزنطية الكثيرة الشيوع ، وخاصة في الصور الجدارية وموزاييك العصور الوسطى .

لايمكننا مناقشة موضوع تأريخ الصور الجدارية المكتشفة في كنيسة قلعة المرقب إلا من خلال علاقة ذلك بموضوع المكان الذي اكتشفت فيه وهو الغرفة الشمالية/ الشرقية المجاورة للهيكل . يبدو أن الجدار الحامل للحنية ذات الصور الجدارية كان معداً لتنفيذ الصور الجدارية عليه . لكن مخطط انجاز الصور الجدارية ابتداءً من أعلى الحنية وحتى أسفل الجدار الحامل للحنية عدّل مما جعل الفنان يقتصر في تنفيذ تلك الصور الجدارية على الحنية فقط .

الغرفة الشمالية/ الشرقية في كنيسة المرقب :

ذكر وجود تلك الغرفة بول ديشامب ، وهي تقع في الزاوية الشمالية/ الشرقية من مبنى الكنيسة ، ويلاصق جدارها الداخلي الجنوبي القسم الشمالي من جدار الحنية ، كما ويلاصق جدارها الخارجي الشمالي الجدار الخارجي الشمالي للكنيسة . يبلغ طول تلك الغرفة ٣٫٤٥ م ويبلغ عرضها ١٫٦٣م . لمدخل الغرفة شكل خارجي مستطيل وشكل قوس من الداخل .

الصور الجدارية للغرفة الشمالية / الشرقية :

اكتشفت الصور الجدارية في الغرفة الشمالية/ الشرقية من كنيسة المرقب في ربيع عام ١٩٧٨ وقد قام اخصائيون من المعمل الفني في المديرية العامة للآثار والمتاحف بالمبادرة الى حفظ وتنظيف الصور الجدارية المكتشفة ، وتركز عملهم أيضاً على صيانة أطراف تلك الصور . وقد حضرت الى المرقب في أيار من عام ١٩٧٩ ، حيث قضيت معظم وقتي في دراسة تلك الصور .

الصور الجدارية للعقد :

وجدت الصور الجدارية في الغرفة الشمالية /الشرقية على جدار العقد . يظهر في تلك الصور اثنى عشر شخصاً . تعلو رأس كل منهم هالة صفراء . يبدو معظم هؤلاء الأشخاص من ذوى اللحى وهم جالسون فوق مقعد خشبي ذا لون بني ، وينظرون الى مركز الغرفة ذات العقد .

لاشك أن تلك الصور الجدارية تمثل مشهد العشاء الأخير وأن الأشخاص الاثنى عشر هم الرسل الاثنى عشر . لكن المشهد يخلو للأسف من أية آثار لكتابات أو نقوش .

نتطرق فيما يلي الى دراسة المشهد ابتداء من جهة الشرق ونحو جهة الغرب .

الرسول الأول في الزاوية الجنوبية الشرقية :

شاب حليق الذقن وذا شعر قصير ، يمسك بيده اليمنى مخطوطاً ويومىء بيده اليسرى ايماءة التبريك . تعلو رأسه الهالة الصفراء . يرتدي هذا الرسول لباسا ذا لون بني مائل الى الوردي ، وأما معطفه فله أطراف ذات لون أحمر/ برتقالي . لون المخطوط الذي يحمله أبيض وتشاهد عليه أسطر باللون الأسود .

الرسول الثاني :

مشهد رأس الرسول الثاني والهالة التي تعلو رأسه متضرر جداً ، فهو مغطى بطبقة دخانية أما القدمين فلا يشاهدان بتاتاً . ينظر الرسول الثاني أيضاً الى اليسار ، ويمسك بيده اليسرى مخطوطاً

ويومىء باليمنى ايماءة التبريك . شعره غامق ولحيته قصيرة . يرتدي الرسول الثاني ثوباً بنياً ومعطفاً أبيضا ذا أطاريف لونها بني مائل الى الاحمر .

الرسول الثالث :

لايشاهد من صورة الرسول الثالث شيء سوى ظل الهالة التي تعلو رأسه .

الرسول الرابع :

يشاهد من صورة الرسول الرابع فقط الهالة التي تعلو رأسه والخطوط الداخلية والخارجية للشكل ، حالة صورة الوجه سيئة . ينظر الوجه بانحراف ضعيف الى جهة اليمين . الخلفية واضحة وهي منفذة باللون الأزرق .

الرسول الخامس :

حالة الرأس والهالة والقسم العلوي من الجسم هي أفضل من حالة صور بقية الرسل . لون الوجه بني غامق وخطوطه منفذة باللون الأسود . للرسول الخامس لحية وشارب . الوجه واللحية مظللان وأن استعمال الألوان المختلفة في الوجه واللحية هو محاولة لإظهار الأبعاد الثلاثة بوضوح . لباس القسم السفلي من الجسم بسيط . المميزات الفنية الأخرى كالتحديد باللون الأسود وتلوين الخلفية باللون الأزرق هي نفسها المنفذة في تصوير الرسل المذكورين أعلاه .

الرسول السادس :

يبارك الرسول السادس بيده اليمنى ويمسك بمخطوط باليد اليسرى وينظر بانحراف ضعيف نحو الجهة اليمنى . لم يبق من الألوان الأصلية سوى النذر القليل ، لكن جزءً من تلوين الهالة مازال واضحاً ، ولباس الرسول السادس محيّر ، لكنه يمكننا مقارنة لباسه مع لباس الرسل الأول والثاني والخامس . يتألف لباسه من قميص ومعطف معقود فوق الرجل اليسرى . صورة المقعد الذي يجلس عليه واضحة ، كذلك الحال بالنسبة الى الخلفية . ويشاهد عند أقصى النهاية الغربية للعقد اطار عريض لونه أحمر يفصل المعقد عن نهاية جدار الصور .

الرسول السابع :

القسم الأكبر من مشهد صورة هذا الرسول مفقود لكنه مازال يمكن مشاهدة أجزاء صغيرة من الهالة التي تعلو رأسه . وأن أهم العناصر التي مازالت تشاهد هي القسم السفلي من الساقين والقدمين .

الرسول الثامن :

حالة صورة الرسول الثامن سيئة . الوجه ينظر الى الجهة اليسرى . ويتألف لباسه من قميص بني ومعطف .

الرسول التاسع :

الرأس والرقبة والهالة مغطاة بطبقة دخانية ، ينظر الرسول الى الجهة اليسرى . ويتألف لباسه من قميص بني ومعطف .

الرسول العاشر :

شعر الرأس يعتريه الشيب ، له لحية وهو ينظر الى الجهة اليمنى .

الرسول الحادي عشر :

تفتقد صورة الرسول الحادي عشر الى معظم الوانها ، ويبدو أن لون شعر الرأس هو أسود . يتجه الرأس قليلاً نحو الجهة اليسرى . من الثياب التي يرتديها لايشاهد شيء ، باستثناء بقعة ذات

لون فاتح هي جزء من تلوين المعطف الذي يرتديه .

الرسول الثاني عشر :

شعره أسود ، ينظر الى الجهة اليمنى ويرتدي قميصاً أزرقاً ومعطفاً بنياً . القسم الأعظم من تلوين الصورة مفقود ، باستثناء تلوين الهالة التي تعلو الرأس .

ملاحظاتنا حول الصور الجدارية المكتشفة في كنيسة المرقب :

أولاً : لقد بدأ الفنان بتنفيذ الصور الجدارية في الغرفة الشمالية/ الشرقية واستمر بتنفيذ عمله الى أن وصل الى القسم الأدنى من جدار الحنية حيث توقف عندها عن العمل .

ثانياً : استخدم الفنان (أو الفنانين) تقنية شائعة في الصور الجدارية البيزنطية المعروفة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر . أما بالنسبة الى اسلوب مشهد العشاء الأخير فهو نموذجي ، كما هو الحال في النموذج المنفذ في قبتي (Hosis Loukas) و (San Marco) . إن أسلوب مشهد العشاء الأخير هذا هو شائع أيضاً في الصور الجدارية المنفذة على العقود في كل من (Cappalla Palatina) في باليرمو وفي كنيسة (Panagia Phorviotissa) في قبرص وفي كنيسة (Toquale Kilisse) .

نفذ التصوير في مشهد العشاء الأخير في المرقب بالطريقة المبسطة وهي المعروفة بوضعية الرسل الاثنى عشر في حالة الجلوس وتطلعهم الى مركز بقعة الغيوم التي تعلو رؤوسهم .

إن فقدان الكتابة ومشهد جميع الرسل ، وهم يحملون بيدهم اليسرى مخطوطاً ويومئون باليمنى ايماءة التبريك تجعل من التعرف على شخصياتهم ومطابقة ذلك مع أسمائهم المعروفة عملية صعبة التحقيق . إلا أنه أمكننا التعرف على كل من الرسول التاسع والرسول العاشر وهم بولص الرسول وبطرس الرسول . وإن العناصر التي أكدت لنا ذلك كانت مكانتهما في وسط المشهد والنموذج الذي يمّيز وجهيهما .

لقد نوهنا آنفاً الى أن مشهد العشاء الأخير المكتشف في كنيسة المرقب هو قياسي بالنسبة الى المشاهد المعروفة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فالمعقد الخشبي الذي يجلس عليه الرسل يشاهد مستمراً . لكن العنصر الغريب هنا يتمثل ببقعة الغيوم الطولانية التي تشاهد عند مركز العقد . وهذا العنصر هو التوافق المبسّط للمصدر السمائي في الصور الأخرى كما هو الحال في صور (Monr eale) أو في صور (M elisend Psalter) .

وعليه يمكننا القول أن مشهد العشاء الأخير في المرقب هو من اخراج محلي ويتناسب مع الوضعية المعمارية للغرفة ذات العقد .

يبدو أن تصوير أشكال شخصيات الرسل في مشهد المرقب ليس تصويراً مطابقاً في أسلوبه للتقاليد البيزنطية ، حيث أن اللباس هو مشابه للزي العربي ، وإن البرنامج الذي نفذت وفقه الصور الجدارية في كنيسة المرقب تدل على أن تلك الكنيسة هي خاصة بقائد القلعة أو ربما كانت خاصة باسقف بانياس الذي نقل مركزه الى القلعة بعد عام ١١٨٨ .

تأريخ الصور الجدارية في المرقب آثريا وتاريخياً يجب أن يقع بين عامي ١١٨٦/١١٨٧ البدء بتشييد الكنيسة و ١٢٨٥ تاريخ تحرير القلعة من قبل المماليك .

يبدو طبقاً للشروط والأسلوب المحلي الذي نفذت وفقه الصور الجدارية في المرقب أن فنان كنيسة المرقب هو ليس نفس الفنان الذي نفذ الصور الجدارية في قلعة الحصن ، مع أن الطينة وتقنية الرسم هي تقريباً متشابهة . تتحدد أوجه الشبه بين الصور الجدارية في المرقب وتلك المكتشفة في قلعة الحصن في العناصر التالية :

١ ـ التأسيس باللون البني المائل الى الأحمر .

٢ ـ الباليت (لوحة مزج الألون) .

٣ ـ نموذج تصوير الوجوه .

٤ ـ نموذج تصوير الذراعين الممتدين واليدين .

٥ ـ الزي .

كل هذه العناصر تشير الى أن التصوير في القلعتين كان قد نفذ في زمن متقارب . من جهة أخرى يمكننا مقارنة صورة الرسول الخامس مع صور بعض القديسين المنفذة في بيت لحم .

فصورة الرسول الخامس في صور المرقب هي قريبة الشبه من صورة القديس ليو أو القديس بلاسيوس .

الفنان (أو الفنانين) الذي نفذ صور المرقب هو الآخر وبالتأكيد ليس بفنان بيزنطي ، لكنه لم يكن ببعيد التأثير بالتقاليد البيزنطية مع التأكيد على امتلاكه لنفحة صليبية غربية وتأثر محلي :

نقترح تاريخاً لصور المرقب عند نهاية القرن الثاني عشر ، أي بين العام الذي شيدت فيه الكنيسة وعام ١٢٠٠ ، ونفضل أن يكون تاريخ تنفيذ الصور في السنوات القليلة التي سبقت عام ١٢٠٠ . ولربما تعود الاسباب في الانقطاع في تنفيذ صور المرقب الجدارية الى حملة صلاح الدين الايوبي لاحتلال القلعة .

الخاتمة :

هناك عنصراً هاماً يجب التطرق اليه ، ألا وهو علاقة تنفيذ الصور الجدارية المسيحية في قلاع حربية كقلعتي الحصن والمرقب بساكني القلعة من المحاربين والجنود ؟ هل أن تلك الصور الجدارية كانت قد نفذت في كنيستي القلعتين لهدف تزييني بحت ، أم أنها كانت قد نفذت لخدمة اقامة الصلوات الدينية وفق التقاليد الكنيسة ؟ كل هذه أسئلة هامة نطرحها ضمن سياق دراسة تلك الصور الجدارية الصليبية ، خاصة وأن تلك الصور تشكل في حد ذاتها ظاهرة هامة بالنسبة لدراسة تاريخ الفن الصليبي بشكل عام ودراسة الفن الصليبي في شمال سورية بشكل خاص . كما وأن تلك الصور الجدارية تشكل أيضاً ظاهرة فنية هامة بالنسبة لعلاقة تلك المراكز الصليبية الفرعية الشمالية بالمراكز الصليبية الأساسية في كل من القدس وأكرى (Acre) في الجنوب .